على هامش مجلة الإسلام والتصوف

الصوفى يرى الطبيعة بالبصر
وما بعد الطبيعة بالبصيرة

لسيادة الأستاذ صلاح الدين السلجوقى
سفير أفغانستان

كتب السيد صلاح الدين السلجوقى سفير أفغانستان ، بعد أن طالع مجلة « الإسلام والتصوف » ، كلمة ضافية عن التصوف والمتصوفين ، رأينا نشرها فيما يلى ، لما فيها من دراسات فلسفية عميقة ، فى هذا الميدان الصوفى ، البعيد الغور .

مجلة الإسلام والتصوف :

وصلنى العدد الأول من مجلة الإسلام والتصوف مع بطاقة صاحبها الشيخ العارف بالله محمد محمود علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية الذى تعرفت به لأول مرة ببرهة من الزمان فى مطار ألماظه عند استقبال فخامة رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، فى عودته من الاتحاد السوفيتى ، فسعدت بمطالعة هذه المجلة ، ورجوت من الله تعالى أن يتقبلها بقبول حسن وينبتها نباتاً حسنا .

الانسان :

يقول شوبن هاور أن الإنسان حيوان ميتا فيزيقى ، ولا شك فى أن الإنسان ، حينما أشرقت عليه شمس الشعور ، بدأ يتخيل ويتفكر فى العالم الآلهى ، فحينما كشف الإنسان عقليا أن هنالك مبدأ للكون أزلى وأبدى ومجرد ، كان هذا الكشف فكرة فلسفية محضة عارية من النزعات ، وخالية من العواطف ، مثلما كشف الإنسان البحار والبرق والذرة ، ولما كشف أن هذا المبدأ هو منشأه

ومصيره أيضاً وأنه ، أى الإنسان ، مسئول أمامه ، أحس فى نفسه خوفا وطمعاً . وكان ذلك بداية الدين عند الإنسان . وحينما نظر نظرة أعمق إلى الكون ، رأى أن هناك نظماً طبيعية تعم الكائنات كافة . . بل هناك نظم يمكنه أن يقرأها بسهولة ونظم تلائم شعوره ، ونظم قريبة إليه . . كأنه هو بنفسه ألفها ودونها ، وحينما يعرج من سطح الطبيعة إلى عالم الشعور والتميز والإرادة ، يرى أن هناك نظاماً أدبياً ينعكس فى مشاعره السامية وضميره الإنسانى ، ويرى أيضاً أن هذا النظام الأدبى متواز ومتوازن مع النظام الطبيعى . وكما أن النظام الطبيعى يدعو إلى المعادلة والجاذبية ، كذلك النظام الأدبى ، يقود إلى العدل والحب . . وعندما يوقن بالنظام الطبيعى ، يفقد نفسه وشخصيته فى ذلك النظام ويجعل إرادته تبعاً لهذا النظام المقدر ويتصور وجوده أقل مما يتصور بجانب العالم الطبيعى المترامى الأطراف . ويعرف أن كل الأشياء تتبع هذا النظام طوعا . ولكن حينما يذعن للنظام الأدبى ، يجد شخصه ونفسه فى مستوى أعلى من الطبيعة ويشعر باتحاد شعورى مع المبدأ القدسى السرمدى ، ويحسب نفسه مجرداً عن المادة ، خالداً من الموت ، ويرى أن هناك وحدة شعورية ، بين المبدأ وبين النظام ، وبين الإنسان وبين المبدأ والنظام والكون . وبينه وبين الكل . فهو يحب الكون ، ويحب النظام ، ويعشق المبدأ الخير العادل الحى النورانى ، الذى هو بقدسيته يبدأ منه كل شىء . ويعود إليه كل حى . فهذا الشخص هو الصوفى الذى يسير فى الكون بمقتضى النظام الطبيعى ويحترم قانون الطبيعة ، كما كان الرواقيون يعتقدون به ، ويسلك فى الحياة بالنظام الأدبى ، ويؤمن بالحق وبالخير وبالعدل ، ويحب الله الذى تجلى فى الآفاق والأنفس . وجعل من الإنسان أحسن مرآة لجماله وجلاله .

فالمعرفة عند الصوفى ذاتية ، ولذلك يسمى نفسه سالكا ومسافراً ، يسافر فى ذاته ، ويطوى المراحل فى نفسه ، ويجد المنزل الأقصى والهدف الأسمى والسعادة العظمى ، وهو الكمال الذاتى ، أعنى التخلق بأخلاق الله فى شخصه المنظم ، وفى نفسه المطمئنة . فهو يعرف الله من نفسه المطمئنة والمتحدة شعوراً مع الله . ويعرف الكون من الله — سبحانه وتعالى عما يصفون — فلا شر ولا نقص ولا قبح فى الكون ، فى نظر الصوفى ، لأن الكون مرآة لجماله وجلاله تعالى .

يقول (بيدل) الصوفى : « ينبغى للنظر حينما يلتقى بأى شىء فى الكون أن يذوب كالطل من الخجـــل . إذا كان يدرك أنه يتجول بدون اكتراث فى مظهر من التجلى » .

فالباحث عن العلوم يبحث عن الطبيعة كشىء خارجى عنه ، ليأمن شره ، ويجلب خيره . والفيلسوف يلم بعالم ما وراء الطبيعة الذى هو أعلى منه ليطل منه كاشفاً ومتفرجاً على الطبيعة . ولكن الصوفى يرى الطبيعة بالبصر ، وما بعد الطبيعة بالبصيرة ، فى ذاته ، الذى هو العالم الأكبر عنده . وكما أن العابد يعبد الله لينال ثوابه ، والزاهد يزهد عن الدنيا ليقى نفسه من العقاب . . فالصوفى يحب الله لا لشىء . بل لوجهه تعالى . يقول بعض الأوربيين إن الحب دين الملائكة . وهذا خطأ . فدين الملائكة هو الوظيفة ، ودين الإنسان هو الحب — الحب للحب . . والله لله .

التصوف :

التصوف ليس كلمة مشتقة من الصوف . ولا من الصفة . . كما زعمه بعض الكتاب . . بل هو كلمة اغريقية معربة من تيوسوفى « Theosophy » ومعناه محبة الله أو رفاقة الله ، وترى أرهاصات تلك الفكرة فى بعض أفكار أفلاطون ، وبعده ترى بأكثر وضوح فى أداء « أسبفزيبوس » ابن أخته ووارث أكاديميته . وترى حتى أكثر من ذلك فى تأملات الرواقيين .

ولكن أول ما ظهر التصوف بمظهره الجـــلى ، كان فى الاسكندرية عند « ديونيسيوس » (أريوباك) البدلى الاسكندرى فى أفلاطونيته الحديثة . وكانت تلك المدرسة فى عهد أفلاطون بعيدة كل البعد عن التصوف . كان أفلاطون يعتقد أن الإنسان لا يمكن له أن يتصل مع الله ، لا بالحس ولا بالفكر أو الحدس وحتى التخيل ، إلا بنوع من الغيبوبة (ECSTASY) . وما كان يدرى أنه تعالى أقرب إليه من حبل الوريد .. ولكن ما مضى عهد حتى نبع من تلك المدرسة ينبوع صاف من التصوف . « فديونيسيوس » أول صوفى رسمى شرح التنزلات الأربع عند المتصوفين فى عالم « الاطلاق » إلى دنيا التعين .

وبعد ذلك يرى نزعة من التصوف فى أفكار اريجينا (جان سكاتس) و (اجشتينوس) وغيرهما من العلماء والرهبان .

وفى الإسلام بعد ما نرى بنص الآية القرآنية : « الله نور السموات والأرض » وبنص الحديث النبوى : « إن الله خلق آدم على صورته » . نرى فى أول مرة أن طفلا ينطق فى مهده عن التصوف . ولد من تأملات القديسة « رابعة العدوية » النابغة التى هى فخر للإسلام وذخر للتصوف ، والتى ترقد محجوبة عن الناس بجوار سيدى عقبة فى منطقة الإمام الليثى بالقاهرة قريبا من زميلها المعروف ذو النون المصرى ، قدس الله سره الغزير .. والتى ننظر إلى اهتمام وزارة الأوقاف ووزيرها الفاضل بمرقدهما الطيب الثرى .

وبعد ذلك نرى تلك الفكرة مبوبة ومفصلة فى آثار الشيخ محيى الدين ابن العربى ..

التصوف الاصلى :

ولكن التصوف الذى وصل إلى ذلك الحد ، كان التصوف الأصلى ، أعنى وحدة الوجود (Pantheism) الذى يقول بالوجود واحد . والوجود الحقيقى هو وجود الله . . وباقى انواع وأصناف وأفراد الوجود ظل ومظهر انعكاس له . فالصوفى فى « الوحدة الوجودى » يقول « الكل هو » أو كما يقول (مكنزى) : هو « الكل » هو الله فى السموات والأرض .

ولكن بعد زوال الفاطميين ، وبعد مخالفة بعض العلماء أمثال العلامة ابن تيمية — (قبله وبعده) ، حدث تدهور فى التصوف ، وبدأ العلماء والمتصوفة انشاء مكاتب أقرب إلى قبول الفقهاء ، وكثرت تلك المكاتب وتعددت المسالك والمشارب ودخلت فيه أشياء كثيرة . . وقامت فى كل بلد وحى حلقات ، لكل حلقة ميزاتها .

وأما التصوف بمعنى الكلمة ، فعبارة عن (وحدة الوجود) الذى انقرض حاليا من العرب ، وتسرب إلى المسلمين غير العرب وخاصة فى الشرق الأوسط

وفى الهند . . فأكثر العلماء والكتاب والشعراء فى تركيا وايران وبخارى ولا سيما أفغانستان والهند ، اعتنقو هذه الفكرة .

وحتى أبو على بن سينا فى آخر اشارته ، والإمام الغزالى فى آخر حياته ، مالا كثيراً إلى تلك الفكرة ، وفى القرن السادس للهجرة عمت هذه النظرية جميع الشرق الإسلامى ، وترى آلافا أمثال مولانا جلال الدين الرومى ، والشيخ شبسترى وفريد الدين العطار . والجامى والسادات والحافظ والعراقى وبيدل يعتنقون هذه الفكرة . وحتى بعض الفلاسفة أمثال القاضى مبارك وصدر الدين الشيرازى صبغوا مبادئهم الفلسفية بهذه الصبغة .

فالقاضى مبارك يشبه الموجود المطلق بالكلى الطبيعى ويشير إليه أفضل الدين الخاقانى الشاعر الكبير فى القرن الخامس للهجرة ، أى قبل القاضى مبارك بأكثر من خمسة قرون .

وتسربت هذه الفكرة إلى أوربا فى أغلب الظن من العرب ، ولا سيما فى الاندلس موطن الشيخ الأكبر محيى الدين العربى ، فسبنوزا الصوفى الكبير ، بل أكبر الصوفية بين فلاسفة الغرب ، كان من أصـــل أندلسى واعتنق تلك الفكرة بأجمل صورة وأعمق نظرة . فآثاره كانت الملهمة للشعراء أمثال جوته وهيتى الألمانى ووردزورث الأنجليزى ، كما كانت الملهمة لمثالية الألمان .

يقول بعض الفقهاء إن هذه الفكرة حلولية وتناسخية ، ولكن وحدة الوجود بريئة من الحلول والتناسخ اللذين فى كل منهما تفاوت وانتقال : فى حال أن وحدة الوجود اشعاع وتجل وانعكاس : فالمنشأ القدسى والنورانى لايزال يتقد ويشعشع والكائنات الحية وغير الحية تقتبس نور الحياة وحفظ التركيب على حسب استعداداتها من ذلك المركز المشع الفعال الأقدس السرمدى بوحدة فى الوجود وافتراق فى الشئون والتعينات :

فالوجود الحقيقى هو مركز الأذاعة . . اذاعة الحياة والشعور فى حال أن جميع الوحدات الآخذة من الكائنات لا تزال تستمد الإشعاع والاذاعة من المركز مع وحدة الروح والإشعاع ولوازمها فى الآخذ والمأخوذ منه . . وبعبارة

أخرى أن الوجود الحقيقى هو كالشمس ، المنبع الأصلى للنور والإشعاع ، وأننا كالذبذبات الاشاعية المنبعثة من الشمس . .

ووحدة الوجود تختلف تماما عن الوجودية Existentialism التى تنكر الضوء وتقر بالظل . . وتحل التعين والتشخص محل الذات وفرق آخر أن الصوفى أنانى « Est » بنفسه العليا التى هى متحدة معنويا مع الله ومحبة للغير Altrwist باتحاده مع الكون . . ولكن الوجودى بأنانيته الفردية والغرائزية بعيد كل البعد من الأصل والكون والمجتمع .

وحدة الوجود

فوحدة الوجود فكرة قديمة ، وحتى فى اليونان توجد آثارها فى ميداشى الهندية ولا سيما فى UPENISHADS (ابنى شاذر) وفى (أفيستا) ولكن الشكل الحقيقى والطبيعى لهذه العقيدة وجدت أولا بصورة ابتدائية فى اليونان ، وبعناية أجمل فى الإسكندرية عند ديونيوس . . ولكن الإسلام عمدها بماء أصفى ، ونفض عنها غبار المادية ووشحها بجواهر كريمة من الحب القدسى والسماوى والعطف الالهى نحو الكون من العلم العلوى إلى السفلى . . يقول العراق : ان أول رحيق أراقوه فى الكأس استعاروه من عين الساقى لسكيره . يعنى أن ينبوع الحب هو الجمـــال الكلى ، ومنه انتزع ونشر الحب . . ويقول الجامى : (الذى يعشق الوجوه الجميلة الجذابة) :

إذا كان يدرس أو لم يكن يدرس فإنه عاشق للجمال الحقيقى :

ويقول عبد القادر بيدل :

التصوف مدرسة فكر فلسفى من أعمق الفلسفة . يعتقد بوحدة الوجوه وبعدما اعتنق الإسلام تقدم شوطا أكبر وأعلى فى سماء التنزيه والتوحيد . . والصوفى المسلم يعتقد أن لا إله ولا كائن ولا موجود ، إلا الله المعبود والمحبوب ، الذى هو أصـــل الوجود ، وينبوع الحياة ، ومنشأ الحب الخالد ، وأن الكون

هو ظل وإشعاع لهذا الشعاع ، الذى هو نور السموات والأرض . .

يقول (بيدل) : إن الموجود اسم لذات متسام ، وأن ماسواه وهم ، من عالم الخضر (أى الأرض) إلى عالم المسيح (أى السماء) . .

ويقول (تولاند) : أنى آمنت بهذه العقيدة وأيقنت ان هذا الفكر هو الفكر الحقيق للإنسان . .

وكثيرون أمثال تولاند يعتنقون تلك العقيدة التى يؤيدها عصر الذرة .

عصر الذرة :

فعصر الذرة الداعى إلى الوحدة فى النظام الطبيعى يقتضى منا ان نتبع الأخلاق الذرى — أعنى تصوف الوحدة الوجودى — التى تدعو إلى الوحدة والحب بين الطبيعة وما بعد الطبيعة وما بين الإنسان والبشر ، والإنسان والكون ، والإنسان والله (شعورا) فالقوة الذرية الفتاكة ينبغى أن تعالج بالأخلاق الذرية — المحبة — أعنى التصوف .